

عجلة نجر بالشام

٢

في الفترة من
١١٥٧ إلى ١٢٢٥ هـ

بقلم الأستاذ / عبد الله حمد الحقييل

لقد تناولنا في الحلقة الأولى من هذه الدراسة، والتي ظهرت في العدد السابق عرضاً موجزاً لما واجهته الدعوة السلفية من أذى وحروب وخصومات حتى حقق الله لتلك الدعوة الظهور والانتشار رغم ما واجهته من حروب.

٣ - عهد صالح بك :

عين السلطان صالح بك والياً على الشام خلفاً لأحمد باشا الجزائر وقد قام صالح بك بعد تعيينه بكتابة تقرير عن مهمة الحجاز وذكر فيه أنه لا غنى عن اشتراك محمد علي باشا في دفع الوهابيين^(١) عن الحجاز، لأن المهمة شاقة وليست هيئة بخال من الأحوال. كما أوضح في تقريره أن طاهر باشا قد وصل إلى جدة مع واليها الجديد زين العابدين باشا ومعه ألف وخمسمائة جندي لتخليص المدينة من حصار ابن سعود^(٢).

وبعد أن تطورت الأحداث، أرسل صالح بك تقريرا آخر يعزز التقرير السابق ويضيف اليه ما استجد في الموضوع. فيذكر أنه بالإضافة الى وصول المدد العسكري الذي يرأسه طاهر بك، فالأمل معقود على وصول مدد آخر من محمد علي باشا الى المدينة المنورة^(١٧).

كل هذا يدل على أن السلطان العثماني وقع في حيرة من أمره، فمرة يكلف والي بغداد. وبعد أن يحس بالتسويق الكثير والتهرب من المأمورية، يكلف والي الشام، ووالي الشام بدوره بماطل وبماطل. ويقول كما قال والي بغداد بأنه لا غنى عن اشتراك والي مصر في المهمة ويسوق الحجج ويقدم الأعذار. ويقوم السلطان العثماني بإرسال أوامره مرارا وتكرارا للضغط على هؤلاء الولاة. وقد كلف بعض الشخصيات الأخرى بالساعدة والمعاونة في تنفيذ هذه المهمة.

٤ - عهد عبد الله باشا العظم :

وخلف عبد الله باشا العظم صالح باشا في ولاية الشام. وبعد التولية أرسل عبد الله باشا عدة رسائل الى السلطان العثماني يخبره فيها بتطورات الأمور بخصوص الاستعدادات التي تجري لمهمة الحجاز، وقد أفاد بأنه أعد كل اللوازم والمهمات لتيسير سفر والي جدة زين العابدين باشا من الشام، وبعد العدة لكي تسافر الجردة العسكرية المرافقة له. وقد وعد بتسهيل مهمة الحرمين الشريفين، وتيسير أمورهما رغم بعض الاضطرابات القائمة في بعض مناطق الشام وصعوبة التغلب عليها بسهولة^(١٨).

ولا يوجد لدينا وثائق تدل على أن عبد الله باشا العظم قام بخطوة إيجابية في سبيل مهمة الحجاز، ولكنه سافر الى الحجاز فقط كأمر للحج الشامي، والوثيقة التالية بها ملخص لعدة مراسلات بعث بها الى السلطان العثماني. وقد قام الكتاب بتلخيصها لحرصها، وتتضمن قيام عبد الله باشا على رأس الحجاج ورفقته والي جدة المعين زين العابدين باشا، ولا تتضمن أي إشارة الى مواجهة عسكرية مع ابن سعود^(١٩).

لم تتخذ التدابير اللازمة لمواجهة ابن سعود من قبل الدولة العثمانية، ولا أقدمت على خطوة عملية في هذا الصدد. وكل ما جرى من قبل والي بغداد

أو والي الشام كان بمثابة وعود براءة وأمال وأحلام، لم يتحقق منها شيء ولا هي قابلة للتحقيق نظرا لثقل المسؤولية وضخامة التبعات وتسويق كل منهما.

وقد اجتمع مجلس الشورى العثماني في منزل شيخ الاسلام. وجرى بحث الموضوع برمته من كل جوانبه. وقد تجاذب المجتمعون الحديث والنقاش وأدلى كل برأيه في هذا الصدد.

وكان النقاش حرا لم ينتقيد بقيود. وقد تضاربت الأقوال والآراء وبرزت بعض الصعوبات نظرا لتعدد الآراء والحجج. وقد رجحت بعض الأقوال إلى حد ما، وتركزت بعض المواضيع لكي يقررها السلطان بنفسه - ويتبين مما دار في جلسة المجلس أن الدولة العثمانية قد أصابها الارتباك والخيرة من جراء ما جرى في الحجاز، فهي لا تعرف لنفسها مخرجا من الأزمة. خاصة وأن من كلفوا بإجراء المهمة اتصلوا منها ووضعوا العراقيل والصعوبات في سبيل تنفيذها. دار النقاش حول تعيين قائد لجيش يخرج من الشام إلى الحجاز، لاسترجاع الحرمين الشريفين من أيدي السعوديين ويربط هناك ويكون في وضع يؤمن الصلح بينهم وبين أمير مكة الشريف غالب، مع عمل التدابير اللازمة للتوجه إلى الدرعية.

غير أن المجلس تبين استحالة التوجه إلى الدرعية، وإن هذا من واجبات والي بغداد. وقد قرر المجلس تكليف والي بغداد بهذا العمل، في نفس الوقت الذي يتحرك فيه جيش آخر من الشام إلى الحرمين الشريفين. وجرى مناقشات طويلة حول اختيار قائد هذا الجيش الذي يتحرك من الشام. وهل يلزم أن يكون والي الشام بنفسه أم رجل عسكري آخر. وما مقدار التداخل في الاختصاصات بين مهام الرجلين؟ (٢٠).

وقام عبد الله باشا العظيم من جانبه بتقديم مقترحاته للسلطان العثماني لاستعادة الحرمين الشريفين للدولة العثمانية وعقد الصلح بين الشريف والسعوديين وتتضمن:

١ - تكليف وزير من أصحاب الثروة والجاه لآيالة حلب.



٢ - تنصيب محافظ المدينة.

٣ - تكوين فرقة من ألف جندي من الخيالة والمشاة، وألف جندي آخر بقيادة ابن أحد الباشوات، ويتم تجهيز ذلك من الشام.

٤ - مرافقة والي مصر للمحمل واحضار الذخيرة من عنده.

٥ - العمل على اتمام الصلح بين الشريف غالب وابن سعود.

٦ - تسهيل تدارك الجمال باعفاء قرى الشام من التكاليف^(٢١).

٥ - عهد يوسف كنج باشا :

وخلف يوسف كنج باشا سلفه عبد الله باشا في حكم الشام. وقد قام يوسف باشا بعد توليه بإرسال تحريات من قبله الى السلطان العثماني يخبره برأيه في مسألة الحجاز وبما تم من النجاحات في سبيل هذه المهمة، والعقبات التي تقصر دونها بعض الاستعدادات.

كما وصلت الى السلطان تحريات أخرى من والي بغداد علي باشا وقد أحال السلطان هذه التحريات كلها الى مجلس الشورى لندارس الموقف والأدلاء بالرأي في هذا الخصوص. اجتمع مجلس المشورة في منزل شيخ الاسلام، وقرئت على الحاضرين تقارير والي الشام ووالي العراق حول تطورات الوضع في الحجاز، والعقبات التي تواجه الحصول على بعض المؤارم والضروريات لمواجهة ابن سعود.

وقد ورد في تحريات والي الشام أنه مستقل بالقيادة العامة للحجاز ولديه عساكر وذخائر كثيرة، وأنه بحاجة الى الجمال لتحميل الذخيرة. ويود أن ترسل اليه مصر الذخائر أيضا كما أنه يحتاج الى ١٨ ألف كيس من النقود. وذكر يوسف باشا أن محمد علي باشا تعهد بامداده بالذخائر والعساكر، ولكنه انشغل بطرد الانجليز. أما والي بغداد فلم يقدم على أي عمل كما ورد في تقريراته^(٢٢).

أخذ يوسف باشا الوالي الجديد يرأوغ كأسلافه ولاية الشام. فنزح في سنة ١٢٢٢هـ بمتطلبات حرب الدرعية من المهمات والذخائر لكي يطلب من

السلطان العثماني ضم طرابلس واللاذقية وغزة وبافا وعجلون اليه، أو أن تمدد الدولة العثمانية بالمال والمهمات ويؤكد أنه رغم التجهيزات والمصروفات والمهمات التي حشدتها. فانها لا تكفي بل انه مازال في حاجة الى المدد(٢٣).

وبعد أن دخل آل سعود الحرمين الشريفين أرسل والي الشام يوسف باشا تقريراً الى السلطان سنة ١٢٢٣هـ مؤداه أنه اتفق مع والي مصر علي باشا (محمد علي باشا) ووالي بغداد سليمان باشا ثم انه يطلب من الدولة العلية تأمين المهمات المطلوبة له للتحرك، بعد أن وافق والي مصر ووالي بغداد على التحرك في نفس الوقت. ويستعجل والي الشام تنفيذ طلباته حتى يمكنه التحرك قبل حلول موسم الحج(٢٤).

وعاد والي الشام يطالب ببعض مناطق الشام لتسهيل مهمته، فطالب بغزة وبافا، لكي يتمكن من نقل الذخيرة والصلاح الى الحجاز، وينبه الى أن مسألة النقل تستلزم وقتاً طويلاً، نظراً لطول المسافة وصعوبة اجتياز الصحراء(٢٥).

وفي الوقت الذي بدأت فيه الدولة العثمانية تعد العدة لغارة ابن سعود، نقض الروس عهدهم مع الدولة وقاموا بمهاجمة بعض المناطق التابعة لها.

وقد قلم والي الشام - تنفيذاً لأوامر الدولة العثمانية بمواجهة السعوديين - بالانصال بوالي جدة الشريف غالب ووالي مصر محمد علي باشا الذي وعد بالكمال استعداداته خلال ثمانية أشهر.

وقد طلب يوسف باشا من الدولة العثمانية أن تبادر بمراسلة الشريف لضرورة الموافقة على دخول عسكر الشام الى الحجاز قبل التحرك(٢٦).

ووردت رسائل وتقارير من والي الشام يوسف باشا عن الحالة في الحجاز وعن ابن سعود، وقد قام الصدر الأعظم بتقديم خلاصة هذه المراسلات الى السلطان العثماني. وهي تتضمن انتشار وباء الطاعون في الجزيرة العربية. كما تتضمن تعيين الصدر الأعظم السابق يوسف ضياء باشا سرداراً على الحجاز(٢٧).

توالت التقارير من يوسف كنج باشا عن الحالة في نجد وعن العريان الذين هاجمهم وإلى بغداد، فلبّوا إلى الشام وتعقبهم وإلى الشام، فارتدوا إلى بغداد مرة أخرى. ويفترح يوسف باشا في نهاية تقرير له أن تتحرك العساكر إلى الدرعية من ثلاث جهات^(٢٨).

وأرسل وإلى الشام عدة رسائل إلى السردار الأكرم يعلن حاجته إلى الذخيرة لمهمة الحرمين وينهى عن استعداد وإلى مصر وترجييه بإرسال الذخيرة. ويطلب التأكد من تنفيذ وإلى مصر لتعهده، والكتابة إليه^(٢٩).

وبدأت مراوغة وإلى الشام يوسف كنج تتضح شيئاً فشيئاً، فهو يراوغ بعد أن تعهد له محمد علي بامداده بالذخيرة، ويطلب من الدولة العلية إيضاحات عن نقل الذخائر لجيشه وعن رضی الشريف غالب عن نزول عساكر محمد علي في الحجاز^(٣٠).

وصول السعوديين إلى الشام :

لا شك أن الدعوة السلفية قامت لتنتشر في الآفاق ولم تقم لكي تنبع في نجد أو في الجزيرة العربية فقط. فهي دعوة إصلاحية لتصحیح الأفكار والمعتقدات التي بعدت عن مسار الإسلام الصحيح، بسبب تفشي القوضى والحزبونات والاعتقادات الباطلة التي لا تنفق وروح الإسلام.

كان الهدف إذا نشر الدعوة داخل الجزيرة العربية وخارج نطاقها في البلاد المجاورة أولاً...

كانت الشام كما كانت العراق من قبل مستهدفة، لنشر الدعوة السلفية في أرجائها وقد اتبع الإمام سعود بن عبد العزيز في البداية طريق السلم، فدعا وإلى الشام كما دعا وإلى بغداد من قبل إلى اتباع الدين الإسلامي الصحيح والسير على هدهد. ولما لم يبر وإلى الشام هذه الدعوة أذناً صاغية، وبدأ يستعد لمواجهة السعوديين في الحجاز لمحاولة ربطهم إلى التبعية العثمانية، كان على الإمام سعود أن يتوجه لتقل المعركة إلى أرض الشام قبل أن يدامه وإلى الشام في الحجاز.

وتفويض الوثائق في ذكر الأرتياك الذي اعترى والي الشام يوسف كنج باشا بعد أن علم بتحرك السعوديين نحو بلاده من الشيخ صقر وقام بتقوية القلاع والاستعداد للمواجهة المرتقبة، وفي ذهنة هزيمة والي بغداد وقواته أمام السعوديين في كربلاء والنجف (٣١).

وأرسل يوسف كنج رسالة أخرى الى السلطان يخبره فيها بأن والي بغداد نصحه بأن يؤخر القوافل حتى لا تتعرض للأخطار لأن ابن سعود قد تحرك قاصدا الشام.

كما اطلع السلطان على كافة استعداد قادة اللاذقية وطرابلس وحماه وحمص والقدس لأي مفاجأة وارسله الجوايس الى كل الأنحاء والي المضايق والمعاير لمراقبة الوضع في تلك المناطق عن كتب منعا للعواقب التي تحدث من جراء المفاجأة والمباغنة (٣٢).

ثم كان لقاء الجيش جيش الشام وجيش ابن سعود عند مزريب، وحدثت بينهما معركة حامية سقط فيها قتلى كثيرون من الطرفين. وانضم الى السعوديين كثير من عربان الشام أثناء اجتيازهم صحراء الشام. وقد رجع ابن سعود من هذه المعركة بعد أن أبلى فيها بلاء حسنا وحقق بعضا من أهدافه، وهو نشر الدعوة السلفية في المناطق الجبلية (٣٣).

وبعد أن دخل الامام سعود بن عبد العزيز الشام ووصل في أراضيها حتى شمال مزريب، وأصبح له أتباع كثيرون في هذه المناطق، قام سليمان باشا والي صيدا بتأمين الذخيرة وكذلك الخنطة والشعير والذرة من عكا وصيدا وبافا وأرسلها الى استانبول. كما تسلم الأموال المقتضية الأداء من صيدا عن سنة ١٢١٩ - ١٢٢٤ هـ، ونبه الى صعوبة الحصول على الذخيرة من غزة والرملة، نظرا لظروف هجرة معظم السكان وقلة الأمطار التي أدت الى النقص في المحاصيل. ثم يتعهد بأن يقف في مواجهة الامام سعود بن عبد العزيز اذا ما عاد الى الشام مرة أخرى (٣٤).

ولما ينس السلطان من كثرة مراوغة يوسف كنج عزله من منصبه، وعين مكانه سليمان باشا والي صيدا، كما كلفه بسردياته الحجاز.

كان موقف سليمان باشا كموقف أسلافه تماماً، وعد بتففيذ المهمة ثم أخلف الوعد، وأخذ يراوغ حتى يئس السلطان من كثرة مراوغته ودهائه، وقرر في النهاية أن يضغط على محمد علي باشا، لكي يتفذه المهمة الشاقة التي تخلى عنها ولاية الشام، كما تخلى عنها ولاية بغداد من قبل. والهدف هو هو محاولة تحطيم الدعوة السلفية ولكنها بقيت مشرقة مضيئة يبر سناها كل الحاقدين وأعداء الاسلام وستظل شريعة الله نوراً وهاجا تضيء المسالك والدروب لجميع المؤمنين.



الموامش

(*) الوهابيون اصطلاح أطلقه خصوم الدعوة السلفية من لا يعرفون حقيقة الدعوة وأهدافها السليمة ومقاصدها السامية.

- (١٦) انظر الوثيقة رقم ٢ / ٥٥ / ٦ من مقتنيات الدارة.
- (١٧) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ١٤٩ من مقتنيات الدارة.
- (١٨) انظر الوثيقة رقم ١ / ٢ / ٤٢ من مقتنيات الدارة.
- (١٩) انظر الوثيقة رقم ١ / ٢ / ٤٣ من مقتنيات الدارة.
- (٢٠) انظر الوثيقة رقم ١ / ٢ / ٥٧ من مقتنيات الدارة.
- (٢١) انظر الوثيقة رقم ١ / ٢ / ٥٨ من مقتنيات الدارة.
- (٢٢) انظر الوثيقة رقم ١ / ٢ / ٦٤ من مقتنيات الدارة.
- (٢٣) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ٨٦ من مقتنيات الدارة.
- (٢٤) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ٩٣ من مقتنيات الدارة.
- (٢٥) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ١١٦ من مقتنيات الدارة.
- (٢٦) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ٢٥ من مقتنيات الدارة.
- (٢٧) انظر الوثيقة رقم ١ / ٢ / ١٧٠ من مقتنيات الدارة.
- (٢٨) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ١٠ من مقتنيات الدارة.
- (٢٩) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ١٧ من مقتنيات الدارة.
- (٣٠) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ٢٧ من مقتنيات الدارة.
- (٣١) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ١ من مقتنيات الدارة.
- (٣٢) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ٢٩ من مقتنيات الدارة.
- (٣٣) انظر الوثيقة رقم ٤ / ١ / ٣١ من مقتنيات الدارة.
- (٣٤) انظر الوثيقة رقم ٤ / ٦ / ١٠ من مقتنيات الدارة.